«آه يا ليل ... يا عين»

عبد الرحمن عمار

آه يا ليل
يا عين
يا مصر .
تحيين في القلب عصفورة
قصيدة شعر
وطوقا من الياسمين .
ولكنك الآن يا مصر ..
يا خيمة الفقراء
وجميزة العاشقين
أراك ، كما الحلم ،
مشبوحة الناهدين
تقادين كالمهرة الجبلية ،
أو كالعقاب الجريح
الى حيث سوق النخاسة في جبل الطور
ها صرت جارية تصلبين
على واجهات المخازن
معروضة للزبائن و « الاصدقاء »
من السائحين .
المزاد رسا .
وانتهى كل شيء أمام قباب الكنيست
والسعر بخس
فهل ترحلين غدا يا مليحة ..
هل ترحلين ؟
كما يرحل النفط عبر الانابيب ؟..
هم راهنوا أن تكوني لهم
« عزبة » في أعالي الصعيد
هم راهنوا أن تموتي
على شاطىء المتوسط ،
في غربة النيل ،
زحفا على الركبتين
فهل يكسبون الرهان ؟..
أجيبي ! تقولين : لا ؟..
اسمعيني ، متى تخرجين
كما يخرج الحي من موته
والازقة من صمتها
والرصاصة من صرخة القلب ؟..
ان دمي يتمرد في جسدي
وأنا أكتب الآن شعرا لعينيك
يا حسرة القلب
ماذا سيفعل حبر على ورق ؟!
قلت : أعوي على داخلي
مثلما في الدياجير تعوي ذئاب البراري
وأرقص كالطير
علّ دمي يستكين قليلا ويهدأ
لكنني خفت في آخر الليل
أن ينهض النائمون
وهم في ذهول بليد
فلا يدركون عوائي
ولا سر هذا العواء ،
فيرمونني بالجنون
وقلت :
لعلّي أرى هاجسا في نعاسي
جريحا كصدري
يقاسمني الدمعة الحارقه
أو أرى بارقا مقبلا
كصهيل الخيول ، غدا ،
من بلاد طوت حزنها
وارتدت ثوبها ناصعا
ليشاركني فرحتي المقبله

* * *

آه يا ليل يا عين
صبّي على الجمر ماء
ونارا
ولا تهمدي أو تنامي .
تمرين في حالتين من الطلق
يا أمة طاردت نفسها
من أقاصي الجزيرة
حتى مياه المضيق .
ويا أمة أدمنت موتها
في سلوك العواصم .
والحرب معلنة
تنشط الآن من طرف واحد
والجنوب الرجيم
اليتيم الحزين
يعضّ التراب
ويدفع غائلة القتل بالراحتين
وعصر « المخاتير » ..
عصر المماليك .. عصر المآدب
ما زال في شكله المستطيل .
يوزع قرصا من « الاسبرين »
على كل ذهن .
فهذا حداء ..
يجيء ، يلبي النداء
ويحتل موضعه في اجترار المآتم والنائبات
وهذا هسيس
يدور ويفتل خلف الكواليس
ثم تعود البلاد لتخلع وجها
وتلبس وجها جديدا ومشنقة
وتجدد فيها القبائل أسرارها
والحدود القلوب
وتفتح مقبرة لبنيها الذين استفاقوا
على عطش وطني .
فيا صرخة من أتون البراكين
يا ليل ..
يا عين
« هلّي » من الدمع ما شئت
قد آن لي أن أطوف الجبال
السهوب
الصحارى
وأعوي على وطني
مثلما في الليالي الشحيحة
تعوي ذئاب البراري
وأرقص كالطير
حتى تقوم القيامة
في عاديات الخطى ،
من أقاصي الجزيرة
حتى ضفاف المحيط .

دمشق